شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

بقلم

الاستاذ ابراهيم الابيارى

١ – ابن أبى الحديد (١)

المعروف بهذه الكنية رجلان أخوان هما موفق الدين ثم عز الدين ، وثانى الرجلين هو المقصود بالترجمة .

والمؤرخون الذين ترجموا لعز الدين يكادون يجمعون على أنه : أبو حامد عبد الحميد بن أبى الحسن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبى الحديد .

يذكر هذا الذهبى وابن شاكر وابن كثير والعينى والصنعانى ومحمد باقر ، غير أن ابن شاكر بعد ما وافق الجماعة فى كتابه « فوات الوفيات » يعود فيخالفهم فى كتابه « عيون التواريخ » فيسقط الجد الثانى « محمداً » فيقول : عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين . « كما يجمد ابن حبيب عند الجد الأول لا يعدوه فيقول : عبد الحميد بن هبة الله بن محمد . ويزيد محمد باقر شيئاً ويسقط شيئاً فيقول : عز الدين بن عبد الحميد بن أبى الحسين بهاء الدين محمد . ثم يمضى فى النسب إلى آخره :

وإلى جده الأعلى أبى الحديد عُزِى « عز الدين » ، كما عُزِى أخوه موفق الدين ، فيقال لكل منهما : ابن أبى الحديد ، وهم يعنون عز الدين أو موفق الدين .

وهـــذه الكتب التى ترجمت لهذا الأخ أو ذاك لم تذكر شيئاً عن هذا الجد الأعلى الذى أضفى كنيته على عقبه البعيد وظل هذا العقب البعيد متمسكاً بها .

وإن انتهاء النسب إلى هذا الجد لا يعدوه ، والاجتزاء بذكر كنيته لا اسمه تلك الكنية التى تشعر بشىء ، يكاد هذا وذاك يمليان أن هذا الجد كان على شىء ، وأن هذا الشىء كان يتصل بالفتوة والبأس .

---

(١) الحوادث الجامعة لابن القوطى (٧٢٣ هـ) – مجمع الآداب فى معجم الأسماء والألقاب لابن القوطى أيضاً – سير أعلام النبلاء للذهبى محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨ هـ) (جـ ١٣ ص ٣١٦) – عيون التواريخ لابن شاكر فخر الدين محمد (٧٦٤ هـ) (وفيات ٦٥٦ هـ) – فوات الوفيات لابن شاكر أيضاً (١ : ٣١٧) – البداية والنهاية لابن كثير أبى الفدا اسماعيل بن عمر (٧٧٤ هـ) (١٣ : ١٩٨ – ١٩٩ مطبعة السعادة) – درة الأسلاك فى دولة الأتراك لابن حبيب بدر الدين حسن (٧٧٩ هـ) (وفيات ٦٥٥ هـ) – عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان للعينى بدر الدين محمود بن أحمد (٨٥٥ هـ) (وفيات ٦٥٦ هـ) – نسمة السحر فى ذكر من تشيع وشعر للصنعانى يوسف بن يحيى (١١٢١ هـ) (٢٦٠ – ٢٦٢) – روضات الجنات لمحمد باقر (١٢٨٧ هـ) (٤٠٦ – ٤٠٩) – شرح نهج البلاغة (١ : المقدمة ، ٢ : ٥٤٦ ، ٣٧١ ، ٣ : ١٩٦ – ١٩٨ ، ٤ : ٢٩ – ٣٠) – كشف الظنون – مجمع البحرين ومطلع النيرين للطريحى فخر الدين بن محمد (١٠٨٥ هـ) – مقامات النحاة فى شرح أسماء الله الحسنى لنعمة الله الجزائرى – الخميس فى أحوال أنفس نفيس للديار بكرى حسن بن محمد (٩٦٦ هـ) حوادث سنة ٦٥٦ هـ – معجم الدمياطى أبى محمد عبد المؤمن بن خلف (٧٠٥ هـ) .

وفى المدائن – مدينة بينها وبين بغداد ستة فراسخ – ولد عبد الحميد سنة ٥٨٦ ﻫ – ويزيد الصنعانى فيجعل ميلاده مستهل ذى الحجة من تلك السنة – فنسب إليها ولقب بالمدائنى . على هذا جميع من أرخو الابن أبى الحديد عز الدين .

غير أن الصنعانى فى « نسمة السحر » يقول : الأنبارى المولد ، وهو يعنى أن بالأنبار – مدينة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ – لا بالمدائن كان مولد عز الدين بن أبى الحديد .

ويكاد يكون لا خلاف بين الذين أرخوا لعز الدين فى أن وفاته كانت ببغداد ، وأنها كانت سنة ٦٥٦ ﻫ . هذا إذا استثنينا حاجى خليفه فى «كشف الظنون» فهو يكرر مع تكرار كتب عز الدين أن وفاته كانت سنة ٦٥٥ ﻫ .

ولا يعرض الكثير منهم للشهر الذى مات فيه، مثل ابن كثير وابن شاكر والعينى وابن حبيب، غير أن الذهبى فى كتابه « سير أعلام النبلاء » يجعل وفاته فى جمادى الآخرة من تلك السنة فيقول : فمات الوزير ابن العلقمى ، فتوفى بعده الموفق بأربع ليال فى نحو الخامس من جمادى الآخرة سنة ست وخمسين ومائة ، فرثاه أخوه العز فقال :

أأبا المعالى هل سمعت تأوهى
فلقد عهدتك فى الحياة سميعا
عينى بكتك ولو تطيق جوانحى
وجوارحى أجرت عليك نجيعا
أنفا غضبت على الزمان فلم تطع
جبلا لأسباب الوفاء قطوعا
ووفيت للمولى الوزير فلم تعش
من بعده شهراً ولا أسبوعا
وبقيت بعدكما فلو كان الردى
بيدى لفارقنا الحياة جميعا

فما عاش العز بعد أخيه إلا أربعة عشر يوماً .

ويكاد قول الذهبى لا يبعد كثيراً عن قول ابن القوطى ، يقول ابن القوطى وهو يذكر أحداث سنة ٦٥٦ ﻫ : فتوفى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى فى مستهل جمادى الآخرة .

ثم يعود فيقول ، وهو يذكر المتوفين فى تلك السنة : توفى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى فى جمادى الآخرة ببغداد ، والقاضى موفق الدين أبو المعالى القاسم بن أبى الحديد المدائنى فى جمادى الآخرة، فرثاه أخوه عز الدين عبد الحميد بقوله – وذكر الأبيات – فعاش عز الدين بعد أخيه أربعة عشر يوماً .

فابن القوطى والذهبى متفقان على أن وفاة العز كانت فى جمادى الآخرة بعد وفاة الموفق بأربعة عشر يوماً ، وقد عين ابن القوطى اليوم الذى توفى فيه ابن العلقمى وأنه توفى فى مستهل جمادى الآخرة ، كما قد عين الذهبى اليوم الذى توفى فيه الموفق أخو العز ، وأنه توفى فى نحو الخامس من هذا الشهر ، أعنى جمادى الآخرة . ونستطيع نحن فى ضوء هذا التعيين وذاك أن نعين اليوم الذى توفى فيه عز الدين ، ونرى أنه توفى فى نحو العشرين من جمادى الآخرة .

غير أن ثمة ما يثير شكا حول هذا الذى قدمناه ، فالذهبى ينقل عن معجم شيخه الدمياطى فيقول : وفى معجم شيخنا الدمياطى أن موت الموفق فى رجب ، ولكنه – أعنى الذهبى – لا يترك هذا الرأى يمر دون أن يعقب عليه فيقول: والأول أصح . وهو يعنى ما ساقه وسقناه نحن عنه من أن موت الموفق كان فى الخامس من جمادى الآخرة .

وبعد الذهبى نجد صاحب كتاب « نسمة السحر » يقول : « وذكر الديار بكرى والذهبى أن الشيخ أبا حامد المذكور توفى قبل دخول التتار بغداد بنحو سبعة عشر يوماً وسلمه الله من شرهم ، رحمه الله تعالى » .

والمعروف أن دخول التتار بغداد كان فى المحرم من سنة ٦٥٦ ه ،وأنهم قتلوا المستعصم ، آخر الخلفاء العباسيين فى صفر ،وأنهم أبقوا على وزيره ابن العلقمى . ثم لا خلاف بين المؤرخين على أن الموفق مات بعد ابن العلقمى. وبعد هذا فيكاد شعر عز الدين يرد على صاحب « نسمة السحر » ما ادعى . ففى هذا الشعر الذى رثى به عز الدين أخاه الموفق ذكر لابن العلقمى وأنه توفى قبل أخيه بقليل ، حيث يقول :

ووفيت للمولى الوزير فلم تعش
من بعده شهراً ولا أسبوعا

وغير هذا فإن الديار بكرى فى كتابه « الخميس فى أحوال كل نفيس » (٢ : ٣٧٧) لم يذكر شيئاً عن وفاة أبى حامد وإنما قصر الحديث على وفاة ابن العلقمى وأنه مات مقتولا قتله هولاكو فى أوائل سنة سبع وخمسين وستمائة .

وهذا الذى قاله الديار بكرى قاله من قبله ابن شاكر فى « الفوات » (٢ : ١٨٨) وهو يترجم لابن العلقمى ، وكذا ابن تغرى بردى (٨٧٤ ه) فى كتابه « المنهل الصافى » .

فهذا أحد رجلين يذكر صاحب «نسمة السحر» أنه نقل عنهما ما نقل من أن وفاة أبى حامد كانت قبل دخول التتار بغداد ، وهو الديار بكرى وهذا ما عنده .

أما ثانى الرجلين اللذين يذكر صاحب «نسمةالسحر» أنه نقل عنهما ، فهو الذهبى . وقد سقنا إليك ما قاله الذهبى فى كتابه سير أعلام النبلاء ، وثمة كتابان آخران للذهبى فى التاريخ هما : تاريخ الإسلام ، ومخطوطته تفقد هذه الحقبة الزمنية،وثانى الكتابين « العبر فى تاريخ من غبر » . وبين يدى المجلد الأول منه طبعة الكويت وينتهى إلى حوادث سنة ٥٠٠ه . وما نظن الذهبى قال فى هاتين غير ما قاله فى كتابه الأول : سير أعلام النبلاء .

وبعد هذا فالقول بأن عز الدين مات قبل دخول التتار بغداد قول مردود ، ولكنه نقلنا إلى جديد ، وهو أن وفاة العز كانت فى سنة ٦٥٧ه ، إن كنا نميل إلى ذاك الترتيب فى الوفيات : سبق ابن العلقمى ، ثم ثنى الموفق ، ثم جاء فى إثرهما عز الدين .

غير أننا نرجح ما ساقه مؤرخان سابقان أقرب إلى عصر صاحب الترجمة وهما ابن القوطى « ٧٢٣ ه » والذهبى « ٧٤٨ ه » لا سيما أن هذا الأخير ساق شيئاً عن شيخه الدمياطى فى معجمه ثم أبطله ، مما يؤكد أنه متثبت مما يقول .

وما ندرى كم كانت أعوام ابن أبى الحديد بالدينور مسقط رأسه . ولكنا نكاد نعرف أنه لم يغادرها إلى بغداد قبل عام أحد عشر وستمائة ، وهو العام الذى ألف فى شهوره القصائد السبع العلويات . وفى ذلك يقول ابن القوطى : نظمها فى صباه وهو بالمدائن فى شهور سنة إحدى عشرة وستمائة . وما ندرى هل بقى ابن أبى الحديد فى المدائن مدة أخرى أم تركها إلى بغداد دون أن يلبث. إن المراجع التى بين أيدينا لا تكاد تعطى شيئاً . ولكنا نجد ابن أبى الحديد نفسه فى مقدمته لكتابه « الفلك الدائر على المثل السائر » يقول : إن جماعة من أكابر الموصل قد حسن ظنهم فى هذا الكتاب جداً — يعنى : « المثل السائر » لابن الأثير الموصلى — وتعصبوا له حتى فضلوه على أكثر الكتب المصنفة فى هذا الفن وأوصلوا منه نسخاً معدودة إلى مدينة السلام ، بغداد ، وأشاعوه وتداوله كثير من أهلها ، فاعترضت عليه بهذا الكتاب وتقربت به إلى الخزانة الشريفة المقدسة النبوية الإمامية المستنصرية — وهو يعنى خلافة المستنصر الذى ولى الخلافة سنة ثلاث وعشرين وستمائة ومات سنة أربعين وستمائة .

ولكن ابن أبى الحديد يزيدنا بياناً فى المقدمة بعد هذا فيقول : وهذا الكتاب وقع إلى فى غرة ذى الحجة من

سنة ثلاث وثلاثين وستمائة فتصفحته أولا أولا فى ضمن الأشغال الديوانية التى أنا بصددها .

إذن فلقد كان ابن أبى الحديد فى بغداد فى هذا العام عام ٦٣٣ هـ وكان عندها صاحب وظيفة فى الديوان . وحديث ابن أبى الحديد قبلُ ، الذى يشير فيه إلى أنه بغى من تأليفه الكتاب التقرب إلى الخزانة الشريفية ، يكاد يشعرنا بأنه كان قريب عهد بالديوان الخليفى ،ولكنه لا يدلنا على أنه كان قريب عهد ببغداد، فقد يكون بلغها قبل ذلك العام بأعوام .

والمقطوع به أن ابن أبى الحديد لم يبرح المدائن إلا بعد أن بلغ الخامسة والعشرين ،فأنت تعرف أن مولده كان سنه٥٨٦ هـ ، وأنه نظم قصائده السبع بالمدائن فى شهور سنة إحدى عشرة وستمائة ، أى إن سنه كانت عندها تبلغ الخامسة والعشرين أو تزيد عنها شيئاً . وما ندرى بعدها — كما حدثتك — كم لبث ابن أبى الحديد بالمدائن ،وهو على كل حال لم يترك المدائن إلا بعد أن جاوز سن التحصيل .

ثم يقربنا ابن أبى الحديد شيئاً مما نريد فيقول فى شرحه لنهج البلاغة (٤ : ٤١) : « وكنت كاتباً بديوان الخلافة — يعنى خلافة المستنصر — والوزير حينئذ نصير الدين أبو الأزهر أحمد بن الناقد فوصل إلى حضرة الديوان فى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

ونجد ابن القوطى فى كتابه « الحوادث الجامعة » يذكر أن أبا الأزهر هذا وزر للمستنصر سنة تسع وعشرين وستمائة ،وأنه فى شوال من سنة ٦٣٠هـ كان فتْح إربل ،وأن الشعراء حضروا إلى الديوان . ثم عد من الشعراء القاضى أبا المعالى القاسم بن أبى الحديد المدائنى . وذكر له شعراً ، ثم أخاه عز الدين عبد الحميد الكاتب وذكر له شعراً .

وهذا يفيدنا أن عبد الحميد كان كاتباً فى الديوان فى ذاك العام — أعنى ٦٣٠ هـ — وإلا ما أطلق عليه ابن القوطى لقب الكاتب .

ولكن ابن القوطى يعود فيقول ، وهو يودع أيام المستنصر : فلما استوزر نصير الدين بن الناقد تولى الأمور بنفسه ورتب بين يديه كاتباً : العدل ناصر الدين ابن رشيد المخزومى ، ثم بعده الجمال عبدالله بن جعفر ، ثم العدل أبا المعالى القاسم بن أبى الحديد المدائنى إلى آخر أيامه ، أى إلى سنة ٦٤٢ هـ وهى السنة التى مات فيها . ولم يذكر عز الدين عبد الحميد بين كتاب الوزير نصير الدين بن الناقد . غير أن هذا لا يدفع ما صرح به عز الدين من أنه كان كاتباً للوزير نصير الدين ، ولى الكتابة مبكراً فى سنة ٦٣٠هـ كما قلنا ، والمرجح أنه بقى موصولا بالديوان وبالوزير نصير الدين إلى أن توفى سنة٦٤٢هـ وحين خلف ابن العلقمى مؤيدالدين أبوطالب محمد بن أحمد فى الوزارة نصير الدين وصل عز الدين ابن أبى الحديد حبله بحبله ورأيناه يهدى إليه كتابه « شرح نهج البلاغة » الذى كان عن تكليف من ابن العلقمى فيما يظهر ، إذ يقول ابن أبى الحديد فى مقدمته، وهو يخاطب ابن العلقمى : « لما شرفت عبد دولته ، وربيب نعمته ، بالاهتمام بشرح نهج البلاغة » . وكان هذا التكليف فى غرة رجب من سنة أربع وأربعين وستمائة ، أى بعد تولى ابن العلقمى الوزارة بنحو عام . وما نظن ابن أبى الحديد خرج عن الديوان الخليفى إلا مع خروج ابن العلقمى حين مات ، كما أشرت إلى ذلك من قبل .

ولقد كان لابن أبى الحديد عز الدين شيوخ ذكر منهم صاحب «نسمة السحر» اثنين وهما: عبد الوهاب ابن سكينة البغدادى ، وعمر بن عبدالله الدباس ، وذكر الذهبى ثالثاً وهو عبدالله بن أبى المجد . وكذلك ذكر الذهبى له تلميذين هما : على بن أنجب المعروف بابن الساعى (٦٧٤ هـ) صاحب الجامع المختصر فى عنوان التاريخ وعيون السير . وقد ذكر ابن كثير وهو يترجم لابن أبى الحديد (١٣ : ١٩٩ — ٢٠٠) أن ابن الساعى هذا أورد له كثيراً من مدائحه وأشعاره الفائقة الرائقة . غير أن جل هذا الكتاب — أعنى كتاب ابن الساعى

لا يزال إلى اليوم مفقوداً ولم يعثر منه إلا على قطعة صغيرة تضم حوادث عشرين سنة من سنة ٥٩٧هـ — ٦٠٦ هـ ، وثانى التلميذين اللذين ذكرهما الذهبى هو الدمياطى أبو محمد عبد المؤمن بن خلف ، وكان شيخاً للذهبى ، وله معجم كان ابن أبى الحديد من بين من انتظمهم هذا المعجم ترجمة وتعريفاً .

ونستطيع أن نضم إلى شيوخ ابن أبى الحديد شيخاً آخر كان بمنزلة الأستاذ الروحى لابن أبى الحديد وهذا الشيخ الروحى هو ابن العلقمى الوزير ، فلقد كان على حظ من علم وأدب وكان له أثر فيمن حوله من أدباء وعلماء وشعراء إنعاشاً واحياءاً بهباته ورأيه . وكان صاحب مكتبة كبيرة أنشأها فى داره وكانت تضم نحواً من عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب كان يفيد منها المختلفون إليها لا شك . وفى ذلك يقول موفق الدين القاسم بن أبى الحديد ، أخو عز الدين :

رأيت الخزانة قد زينت   يكتب لها المنظر الهائل
بها مجمع البحر لكنــه   من الجود ليس لها ساحل
ومنها المهذب من فضلكم   ومغن ولكنــه نــائل
ومنها الوسيط بما ترتجيــ   ـه وفيها النهاية والكامـل

وما نظن ابن أبى الحديد عز الدين إلا قد وصل حبله بحبل ابن العلقمى منذ حل بغداد هو وأخوه ، وما نظن عز الدين وموفق الدين إلا انتفعا بجاه ابن العلقمى كما انتفعا بعلمه منذ أن حلا بغداد ، فلقد كان ابن العلقمى موصولا بالديوان الخليفى قبل أن يكون وزيراً ، فقد كانت إليه أستاذية الدار منذ ولى نصير الدين الوزارة سنة ٦٢٩ هـ .

فقد رأينا الأخوين ابنى أبى الحديد لا ينفكان يهنئانه ويثنيان عليه مع المناسبات ، فحين أهدى الخليفة إلى ابن العلقمى بغلة انبرى موفق الدين أخو عز الدين يقول :

هنئت يا خير الملوك ببغلة   من مالك متفضل متطول
جاء البشير بها إليك كأنما   جبريل جاء محمداً بالدلدل

(دلدل : بغلة الرسول صلى الله عليه وسلم) .

وحين ردت جيوش التتار عن بغداد سنة ٦٤٣ هـ وكان الوزير ابن العلقمى قال عز الدين :

أبقى لنــا الله الوزير وحاطــه
بكتائب من نصره ومقــانب
وأنا الذى يهواك حبا صادقاً
متقادماً ولرب حب كاذب
حبًّا ملأت به شعاب جــوانحى
يفعا وها أنا ذو عذار شائب

وهذا البيت الثالث يدلك على قدم صلة عز الدين بابن العلقمى من قديم كما قلنا .

وقد مر بك طرف مما كتبه عز الدين فى مقدمته على شرح نهج البلاغة مشيراً إلى ابن العلقمى ، وثمة شىء آخر كان أقوى من جاه ابن العلقمى وعونه وصل بينه وبين عز الدين ، هو الرأى الذى دان به ابن العلقمى ، ودان به معه عز الدين ، فقد كان ابن العلقمى شيعياً رافضيا ، أى من الذين رفضوا زيد بن على حين أبى عليهم أن يبرأ من الشيخين . وكان عز الدين شيعياً أول أمره . وفى ذلك يقول ابن كثير : وكان حظيّا — يعنى عز الدين — عند الوزير ابن العلقمى لما بينهما من المناسبة والمقاربة والمشابهة فى التشيع . وذكر هذا أيضاً العينى فى « عقد الجمان » .

وما خالف ابن أبى الحديد ولى نعمته كثيراً حين أصبح ابن أبى الحديد معتزلياً جاحظياً ، فمن المعتزلة من يجعلون أفضل الأمة بعد نبيها أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ويقولون أن علياً كان على الصواب وأن من حاربه فهو ضال .

والجاحظ الذى تنسب إليه الجاحظية من القائلين بأن الإمامة لا يستحقها إلا الفاضل على كل حال ولا يجوز أن تصرف إلى المفضول ما وجد الفاضل .

ويفسر لك هذا أبيات عز الدين التى قالها فى ابن العلقمى ، حين فرغ من تصنيف الكتاب وأنفذه على يد أخيه موفق الدين ، ولم يحمله هو إليه ، لا ندرى لم ، فبعث له ابن العلقمى بمائة دينار وخلعة سنية وفرس ، فكتب عز الدين :

أيا رب العبـاد رفعت صنعى
وطلت بمنكبى وبللت ريـقى
وزيغ الأشعرى كشفت عـنى
فلم أسلك ثنيـات الطـريق
أحب الاعـتزال ونـاصريه
ذوى الألباب والنظر الدقيـق
فأهل العدل والتوحيد أهـلى
نعم ففريقهم أبـداً فـريقى
وشرح النهج لم أدركـه إلا
بعونك بعـد مجهدة وضيـق
تمثل إذ بـدأت به لعيـنى
هنـاك كذروة الطود السحيق
فتم بحسن عونك وهو أنـأى
من العيـوق أو بيض الأنوق
بآل العلقمى ورت زنـادى
وقامت بين أهل الفضل سوقى
فكم ثوب أنيـق نلت منهم
ونلت بهم وكم طـرف عتيق

فعز الدين هنا يصرح بما ناله من فضل وخير من العلقمى وآله كان له أثره فى توثيق ما بينه وبين ابن العلقمى ، كما يشير إلى صلة وثقى هى الرأى الجامع على حب على وآله .

والأشعرى الذى يذكره ابن أبى الحديد هو على ابن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن الأشعرى (٣٢٤ هـ) موئسس مذهب الأشاعرة ، وكان من قبل ذلك معتزليا ثم خرج عليهم . وكتابه «إمامة الصديق» ينبئك بما كان ينادى به من رأى يخالف رأى الشيعة والمعتزلة فى إمامة على .

ويكاد ابن أبى الحديد فى بيته « وزيغ الأشعرى » يعطينا الدليل على تلك التلمذة التى ادعيناها من قبل حين ضممنا ابن العلقمى إلى شيوخ ابن أبى الحديد . وهكذا لم يُبعد ابنَ أبى الحديد اعتزالُه عن ابن العلقمى فى تشيعه ، فالمعتزلة والشيعة سواء فى تفضيل « على » كما لم تبعد جاحظية ابن أبى الحديد به عن ابن العلقمى فى رافضيته ، إذ الرافضة كما علمت يرفضون زيد بن على لأنه لم يرفض الشيخين والجاحظية لا ترفضه ، ولكنهما — أعنى الرافضة والجاحظية — متفقان على على[1].

وهكذا كان عز الدين محباً لآل البيت . خرج بهذا الحب من المدائن يعمر به قلبه ويلهج به لسانه وحسبك قصائده السبع العلويات التى أتم نظمها سنة ٦١١هـ ، ومما يدل على غلوه فى تشيعه قوله فى الإمام على :

من أجله خلق الزمان وضوئت
شهب كنسن وجن ليل أدرع
وإليه فى يوم المعاد حسابنـا
وهو الملاذ لنـا غدا والمفزع
هذا اعتقادى قد كشفت غطاءه
سيضر معتقـداً له أو ينفع

بهذا المعتقد خرج عز الدين من المدائن ، وحين لقى ببغداد ابن العلقمى ورآه يدين بما دان به لف حبله بحبله يفيد من رأيه ويفيد من جاهه ويفيد من مكتبته .

وهذا الاعتزال الذى عرف لابن أبى الحديد قديم قدم تشيعه ، صرح به فى قصيدته العينية من القصائد السبع العلويات التى نظمها سنة ٦١١ هـ قبل أن يصرح به فى أبياته التى وجهها إلى ابن العلقمى سنة تسع وأربعين وستمائة ، وهى السنة التى فرغ فيها من تأليف كتابه شرح نهج البلاغة ، فلقد قال فى عينيته :

(١) الحور العين لنشوان الحميرى .

ورأيت دين الاعتزال وأنـني
أهوى لأجلك كل من يتشيع

ويكاد ابن أبي الحديد يشير فى قصيدته تلك إلى أن هذا كان رأى بيته وبه يدين أهله ومن أجله عاشوا مجاهدين ، وذلك حين يقول :

ولقـد علمت بأنه لا بد من
مهـديكم وليومـه أتوقـع
تحميه من جنـد الإله كتائب
كاليم أقبـل زاخراً يتدفع
فيها لآل أبي الحديد صوارم
مشهورة ورمـاح خط شرع

ويقول عنه محمد باقر : كان موالياً لأهل بيت العصمة والطهارة وإن كان فى زى أهل السنة والجماعة منصفاً غاية الإنصاف فى المحاكمة بين الفريقين ومعترفاً فى ذلك المصاف بأن الحق يدور مع والد الحسنين .

ويقول الطريحى : وابن أبي الحديد فى الأصل معتزلى يستند إلى المعتزلةمدعياً أنهم يستندون إلى شيخهم أمير المؤمنين على فى العدل والتوحيد .

ولقد كان ابن أبي الحديد ورعا أشد الورع يكثر من مناجاته لربه ، وله فى ذلك أشعار كثيرة منها :

يا مدهش الألباب والفطن ومحير التقوالة اللسن

ومنها :

ناجيته ودعوته اكشفْ عن عشى
قلبي وعن بصرى وأنت النور
وارفع حجاباً قد سدلت ستوره
دونى وهل دون المحب ستور

ثم هو بعد ذلك كان عالماً متبحراً له مؤلفات انفرد بذكر أكثرها ابن القوطى ، ونقل عنه محمد باقر وزاد ابن شاكر شيئاً وحاجى خليفه شيئاً آخر ، وها هى ذى كتبه مستقاة من تلك المصادر :

١ – الاعتبار على كتاب الذريعة فى أصول الشريعة للمرتضى أبي القاسم على بن الحسين (٤٣٩ هـ) . ذكره ابن القوطى وذكر أنه فى ثلاث مجلدات ونقله عنه هذا محمد باقر .

٢ – انتقاد المستصفى للغزالى أبي حامد محمد بن محمد (٥٠٥ هـ) . وكتابه المستصفى هذا فى أصول الفقه عنى به بعد الغزالى أكثر من واحد شرحاً وتعليقاً واختصاراً . وقد ذكر « الانتقاد » هذا ابن القوطى ، وتبعه محمد باقر . ولم يعرض له حاجى خليفه وهو يعرض « المستصفى » .

٣ – الحواشى على كتاب المفصل ، فى النحو للزمخشرى أبي القاسم محمود بن عمر (٥٣٨ هـ) . ذكره ابن القوطى وحده ولم يعرض له حاجى خليفه فيما عرض من شروح وتعليقات وتحشيات على كتاب المفصل ذاك .

٤ – شرح المحصل للرازى . ذكره ابن القوطى ونقله عنه محمد باقر ، وهو كما فى كشف الظنون : محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى (٦٠٦ هـ) . والكتاب كما يشير عنوانه يشتمل على أحكام الأصول والقواعد . ذكر هذا الشرح ابن القوطى ونقل عنهمحمد باقر . وذكره حاجى خليفه وقال : وعليه تعليقة لعز الدين عبد الحميد .

٥ – شرح مشكلات الغرر لأبي الحسن محمد بن على البصرى (٤٦٣ هـ) . ذكره ابن القوطى ونقله عنه محمد باقر . كما ذكره حاجى خليفه باسم « غرر الأدلة » ولم يشر إلى شرح مشكله .

٦ – شرح الياقوت لابن نوبخت ، فى الكلام . ذكره ابن القوطى ونقل عنه محمد باقر .

٧ – العبقرى الحسان . ذكره ابن القوطى فقال : وهو كتاب غريب الوضع قد اختار فيه قطعة وافرة

من الكلام والتواريخ والأشعار وأودعه شيئاً من إنشائه ومنظوماته . وقد نقل عنه محمد باقر .

٨ – الفلك الدائر على المثل السائر لابن الأثير . ذكره ابن القوطى وابن شاكر وابن حبيب ونقله عنهما محمد باقر . والكتاب اسمه : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد ابن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الجزرى (٦٣٧ ﻫ) وقد ذكر حاجى خليفه وهو يعرف بكتاب ابن الأثير كتاب عز الدين هذا فقال : وصنف عز الدين وهو عبد الحميد بن هبة الدين محمد المدائنى المعتزلى الشيعى أن لأبى الحديد كتاباً سماه الفلك الدائر على المثل السائر ثم ذكر شيئاً من أوله . وكتاب ابن أبى الحديد هذا مطبوع . وهو كتاب صغير . وقد سقنا شيئاً من مقدمته ، وأنه ألفه للمستنصر بدأ فيه فى ذى الحجة سنة ٦٣٣ ﻫ وفرغ منه فى خمسة عشرة يوماً .

٩ – القصائد السبع العلويات . ذكرها ابن القوطى وحده ، وقد طبعت ومعها القصيدة الأزرقية لمحمد كاظم .

١٠ – نظم فصيح ثعلب أبى العباس أحمد بن يحيى (٢٩١ ﻫ) . ذكره ابن شاكر وابن حبيب كما ذكره حاجى خليفة وهو يعرض فصيح ثعلب فقال : ونظمه القاضى شهاب الدين محمد بن أحمد الخوبى المتوفى سنة ٦٩٣ ﻫ وعز الدين عبد الحميد بن هبة الله المدائنى .

١١ – نقض المحصول فى علم الأصول . كذا ذكره ابن القوطى وكما ذكره ابن القوطى نقله محمد باقر . وذكره حاجى خليفه باسم : المحصول فى أصول الفقه لفخر الدين محمد بن عبدالله الرازى (٦٠٦ ﻫ) . ثم قال : وعلق عليه أحمد بن عثمان بن ضبيع الجوزجانى (٧٤٤ ﻫ) وكذا عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المدائنى المعتزلى .

١٢ – الوشاح الذهبى فى العلم الأبى . ذكره ابن القوطى ونقله عنه محمد باقر .

١٣ – ديوان شعر . ذكره ابن شاكر .

١٤ – المستنصريات – جاءت فى مقدمة الطبعة الجديدة من شرح النهج . وفيها : كتبها برسم الخليفة المستنصر . ومنها نسخة بمكتبة النجف .

١٥ – زيادات النقيضين (زيادات التقصير) – جاء ذكره على لسان ابن أبى الحديد (انظر ص ١٣٧ من هذا المقال) . ولم يذكره مرجع من المراجع .

١٦ – وبعد هذه كلها : شرح نهج البلاغة . وهو ما سنتحدث عنه .

شرح نهج البلاغة

وهذا الكتاب يعد أجل عمل قام به عز الدين عبد الحميد . لم يسكت عنه واحد ممن أرخوا له ، هذا إذا استثنينا الذهبى فى كتابه «سير أعلام النبلاء» فإنه لم يعرض لمؤلفات ابن أبى الحديد من قرب أو من بعد، وابن حبيب فى «درة الأسلاك» فإنه لم يذكر «غير الفلك الدائر » ، ثم هم حين ذكروا هذا المؤلف أفردوه بالإعجاب من بين كتبه الأخرى .

يقول ابن القوطى فى كتابه «معجز الآداب» : وقد احتوى هذا الشرح على ما لم يحنو عليه كتاب من جنسه.

ويقول ابن يحيى فى كتابه «نسمة السحر» : جمع فيه العجائب ودل على فضله وغزارة مادته .

ويقول محمد باقر فى كتابه روضات الجنات : وحسب الدلالة على علو منزلته فى الدين وغلوه فى ولاية أمير المؤمنين شرحه الشريف الجامع لكل نفيسة وغريب الحاوى لكل نافحة ذات طيب من الأحاديث النادرة والأقاصيص الفاخرة والمعارف الحقانية والعوارف الإيمانية .

والكتاب مجزأ إلى عشرين جزءاً . ذكر ذلك ابن القوطى وابن شاكر فى كتابه الفوات وعيون التواريخ والعينى فى كتابه عقد الجمان، وتبعهم حاجى خليفه فى كتابه كشف الظنون . غير أنهم جميعاً جعلوه عشرين مجلداً لا عشرين جزءا ، على حين نجد المؤلف ابن أبى

الحديد يسمى التقسمة أجزاء لا مجلدات . فيقول : انتهى الجزء الأول ،وحين يختم كتابه يقول: آخر الجزء العشرين وبه تم الكتاب .

وثم مؤرخ متأخر وهو صاحب «نسمةالسحر» يخرج على هذا الإجماع فيقول: فى نحو أربع مجلدات. وظاهر أن ثمة صلة بين هذه التجزئة والتجزئة التى خرج بها الكتاب مطبوعاً فى مصر سنة١٣٢٩هـ ،على حين أن هذه الطبعة المصرية جاءت لاحقة لطبعة حجر فى فارس كانت سنة ١٢٧١ هـ خرجت فى مجلدين .

وقد ذكر ابن أبى الحديد فى مقدمة كتابه (١ : ٢) أنه لم يشرح هذا الكتاب – يعنى: نهج البلاغة – قبله فيما يعلم غير واحد . هو سعيد بن هبة الله بن الحسن ، المعروف بالقطب الراوندى (٥٧٣ هـ) .

ولكن الشيخ هبة الدين الشهرستانى الحسينى يذكر فى كتابه « ما هو نهج البلاغة » نقلا عن شيخه النورى (١٣٢٠ هـ) شراحاً سبعة سبقوا ابن أبى الحديد وهم كما ذكرهم :

١ – أبو الحسن البيهقى على بن زيد بن محمد (٥٦٥ هـ) .

٢ – الإمام فخر الدين الرازى محمد بن عمر بن الحسين (٦٠٦ هـ) ذكر له القفطى فى كتابه تاريخ الحكماء هذا الشرح وهو يترجم له وقال : إنه لم يتمه .

٣ – القطب الراوندى . وقد سمى شرحه: منهاج البراعة ، فى مجلدين .

٤ – القاضى عبد الجبار .

٥ – الحسن بن على بن أحمد الماهاباوى ، شيخ الشيخ منتجب الدين صاحب الفهرست .

٦ – أبو الحسين محمد بن الحسين بن الحسن البيهقى الكيدرى . واسم شرحه : الإصباح . فرغ من تأليفه سنة ٥٧٦ هـ .

٧ – شرح آخر قبل شرح الكيدرى يسمى : المعراج .

ولقد أحصى الشيخ النورى من شروح هذا الكتاب ستاً وعشرين بما فيها شرح ابن أبى الحديد ، وزاد عليه تلميذه هبة الدين تسعة عشر شرحاً ، منها ما هو بالفارسية ، وهو شرح فتح الله بن شكرالله الكاسانى . وقد سماه : تنبيه الغافلين وتذكرة العارفين .

والكتاب كما يملى عنوانه شرح لكتاب آخر هو نهج البلاغة للشريف الرضى محمد بن الحسين (٤٠٦ هـ)، لا للشريف المرتضى أخيه ، كما يتوهم البعض . ولقد وقع فى هذا الخطأ جملة من الذين شغلوا بفهرسة الكتب العربية منهم إدوارد فانديك فى كتابه : اكتفاء القنوع . وحاجى خليفه فى كتابة كشف الظنون . فقد نسبه هو الآخر للشريف المرتضى مع شك فى هذه النسبة ، وأثبتت بعض فهارس دور الكتب العامة هذا الخطأ،منها فهارس دار الكتب المصرية .

ومرد هذا الخطأ إلى أن الشريف الرضى كان يلقب هو الآخر بالمرتضى ، احتفاظاً بلقب الجد إبراهيم ابن موسى بن جعفر ، الذى كان يلقب بالمرتضى ، وبقى الأخوان محمد وعلى يلقب كل منهما بالمرتضى إلى أن أصبح محمد نقيباً على نقباء العلويين فلقبوه الرضى ليتميز عن بقية آل المرتضى .

هذا والأسانيد متواترة على صحة نسبته إليه – أعنى إلى الرضى محمد بن الحسين – كما أن نسخة الكتاب التى كتبت بخطه لا تزال موجودة[1].

ولقد جمع الرضى من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب فاستوعب مائتين واثنتين وأربعين (٢٤٢) خطبة ، وثمانية وسبعين كتاباً،وثمانية وتسعين وأربعمائة (٤٩٨) حكمة .

جمع الرضى ذلك كله عن مؤلفين سبقوه إلى هذا الجمع ، جمعوا الكثير من هذه الخطب ، منهم :

---

(١) « ما هو نهج البلاغة » (ص ٨) .

١ — الكليني محمد بن يعقوب (٣٢٨ هـ) فى كتابيه : الكافى والرسائل .

٢ — محمد بن بابويه القمى (٣٨١ هـ) .

٣ — أحمد بن عبدربه (٣٢٧ هـ) فى كتابه : العقد الفريد .

٤ — الآبى أبو سعيد منصور (٤٢٢ هـ) فى كتابه : نثر الدرر .

وقد ذكر المسعودى (٣٤٦ هـ) أن الخطب المنقولة عن أمير المؤمنين على عليه السلام هى أربعمائة ونيف وثمانون خطبة .

والطاعنون فى نسبة هذه الخطب كلها أو بعضها إلى الإمام على، وعلى رأسهم الذهبى أبو عبدالله محمد بن أحمد (٧٤٨هـ) حيث يقول فى كتابه : «ميزان الاعتدال» ومن طالع كتاب نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين على رضى الله تعالى عنه، فإن فيه السب الصريح للسيدين : أبى بكر وعمر .

ويشير الذهبى بهذا — مع غيره من المتشككين فى نسبة الكتاب — إلى الخطبة الشقشقية التى تحدث فيها على عن الخلافة وتولى أبى بكر لها ثم عمر وما فيها من صراحة ألفت عن على حين كان يرى الحق فى جانبه .

وهذه الخطبة رواها قبل الرضى جملة منهم :

١ — شيخ المعتزلة أبو القاسم البلخى (٣١٧ هـ) . وقد ذكره ابن أبى الحديد فى شرحه للشقشقية .

٢ — أبو جعفر بن قبة (المائة الثالثة) وقد ذكره ابن أبى الحديد كذلك فى شرحه للشقشقية .

٣ — أحمد بن محمد البرقى (٢٧٤ هـ) وقد أورد هذه الخطبة فى كتابه : علل الشرائع ، وهو مطبوع .

٤ — عبد العزيز بن يحيى الجلودى (القرن الثالث) فى كتابه : معانى الأخبار . وهو مطبوع .

٥ — أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان المفيد ، وهو من شيوخ الرضى ، روى هذه الخطبة فى كتابه : الإرشاد ، وهو مطبوع .

٦ — الجبائى محمد بن عبد الوهاب (٣٠٣ هـ) فى كتابة الفرقة الناجية وقد عرض ابن أبى الحديد لدفع هذا الطعن فى شرحه (ج ١٠ : ٥٤٦) بكلام طويل نقتطع منه : كثير من أرباب الهوى يقولون : إن كثيراً من نهج البلاغة كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة وربما عزوا بعضه إلى الرضى أبى الحسن وغيره . وهؤلاء قوم أعمت العصبية أعينهم فضلوا عن النهج الواضح » .

والكلام فى هذا كثير إن شئت عنه تفصيلا فارجع إلى كتاب «ما هو نهج البلاغة» لهبة الدين الشهرستانى ، و « على » للأستاذ أحمد صفوت .

وهذا الشرح — شرع فيه ابن أبى الحديد بتوجيه الوزير ابن العلقمى فى غرة شهر رجب من سنة أربع وأربعين وستمائة (٦٤٤ هـ) وفرغ منه فى سلخ شهر صفر من سنة تسع وأربعين وستمائة (٦٤٩ هـ)، أى إنه أتمه فى نحو من خمس سنين وهى مقدار مدة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام ، كما يقول ابن أبى الحديد .

وظاهر أن ابن أبى الحديد كان مشغولا بنهج البلاغة صغيراً وأنه كانت له حوله محاولات ضئيلة لا تعدو ذكر الغريب ، يدل على ذلك قوله فى مقدمته : وشرع فيه — وهو يعنى نفسه — بادى الرأى شروع مختصر ، وعلى ذكر الغريب والمعنى مقتصر .

غير أنه رأى هذا لا يجزئ ولا يتفق، وذاك التكليف تكليف ابن العلقمى، فعدل عنه إلى غيره مما فيه إطالة وبيان ، وهو يشير إلى ذلك فى مقدمته حين يقول :

فرأى أن هذه النغبة — الجرعة — لا تشفى أواما ، ولا تزيد الحائم إلا حياما ، فتنكب ذلك المسلك ، ورفض ذلك المنهج وبسط القول فى شرحه بسطاً ،

اشتمل على : الغريب ، والمعانى ، وعلم البيان ، وما عساه يشتبه ويشكل من الإعراب والتصريف ، وأورد فى كل موضع ما يطابقه من النظائر والأشباه نثراً ونظماً ، وذكر ما يتضمنه من السير والوقائع والأحداث فصلا فصلا ، وأشار إلى ما ينطوى عليه من دقائق علم التوحيد والعدل إشارة خفيفة ، ولوح إلى ما يستدعى الشرح ذكره من الأنساب والأمثال والنكت تلويحات لطيفة ، ورصعه من المواعظ الزهدية والزواجر الدينية والحكم النفسية والآداب الخلقية المناسبة لفقره والمشاكلة لدرره والمنظمة مع معانيه فى سمط . وأوضح ما يومىء إليه من المسائل الفقهية ، وكشف عن مقاصده عليه السلام فى لفظة يرسلها ومعضلة يكنى عنها وغامضة يعرض عنها » .

كل هذا ضمنه ابن أبى الحديد شرحه معقباً فى مواضع منه على القطب الراوندى سعيد بن هبة الله بن الحسن فى شرحه ، وهو الشرح الذى يقول ابن أبى الحديد : إنه لم يسبق إلا به ،وذلك حين يقول فى مقدمته : وقد تعرضت فى هذا الشرح لمناقضته فى مواضع يسيرة اقتضت الحال ذكرها ، وأعرضت عن كثير مما قاله لم أر فى ذكره ونقضه كثير فائدة .

وابن أبى الحديد قبل أن يأخذ فى الشرح مهد بذكر :

١ ــ أقوال أصحابه فى الإمامة والتفضيل والبغاة والخوارج .

٢ ــ نسب أمير المؤمنين عليه السلام ولمع يسيرة من فضائله .

٣ ــ نسب الرضى أبى الحسن محمد بن الحسين وبعض خصائصه ومناقبه .

٤ ــ شرح خطبه نهج البلاغة التى هى من كلام الرضى .

ثم أخذ فى شرح كلام أمير المؤمنين على عليه السلام فى ضوء هذا النهج الذى رسمه يجمع تلك المعانى كلها التى أشار إليها لا يفوته شىء ، مجزئاً النص فقرا ، ثم يعقب على الفقر بشرحه مشيراً إلى النص بكلمة « الأصل » وإلى كلامه على النص بكلمة « الشرح » وفى ذلك يقول :

ونجعل ترجمة الفصل الذى نروم شرحه (الأصل) ، فاذا أنهيناه قلنا (الشرح) فذكرنا ما عندنا فيه .

وحسبك بعد ذلك هذا النموذج من عمل ابن أبى الحديد لتتعرف مدى جهده . ومدى إفاضته ، فهو حين يشرح خطبة للإمام على يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم لا تعدو كلمات هذه الخطبة تسعمائة كلمة يشرحها ابن أبى الحديد فى نحو من أربعين صفحة لا تقل كلمات كل صفحة عن سبعمائة كلمة ، وإذا هو يسوق الحديث عن :

١ ــ معنى الحمد والمدح والشكر .

٢ ــ رؤية البارى تعالى فى الآخرة والرد على الأشاعرة .

٣ ــ كمال معرفة البارى والتصديق به .

٤ ــ خلق السموات والأرض وبيان ما قيل فى ترتيب خلقها .

٥ ــ تعريف الملائكة وأنسابهم .

٦ ــ رؤساء الملائكة عند أهل الملة والفلاسفة وصفة خلق آدم .

٧ ــ خلق آدم عليه السلام وسجود الملائكة إلا إبليس

٨ ــ اختلاف المسلمين واليهود والنصارى والهنود والمجوس فى ابتداء خلق البشر .

٩ ــ بطلان تصويب إبليس والاختلاف فى خلق الجنة والنار .

١٠ ــ تفضيل الملائكة على البشر وأن إبليس من الملائكة أم لا .

١١ ــ الميثاق المأخوذ من الأنبياء .

١٢ ــ بيان اختلاف الناس وخصوصاً العرب فى الملل والنحل .

١٣ — بيان ما اشتمل عليه القرآن من الحلال والحرام والخاص والعام .

١٤ — فضل الكعبة وزائريها .

فيقول :

« الأصل » :

فمن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم :

« الحمد لله الذى لا يبلغ مدحه القائلون ، ولا يحصى نعماءه العادون ، ولا يؤدى حقه المجتهدون، الذى لا يدركه بعد الهمم ، ولا يناله غوص الفطن ، الذى ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود ، فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته . ووتد بالصخور ميدان أرضه » .

« الشرح » :

الذى عليه أكثر الأدباء والمتكلمين أن الحمد والمدح أخوان ، لا فرق بينهما . تقول : حمدت زيداً على إنعامه ، ومدحته على إنعامه ، وحمدته على شجاعته ومدحته على شجاعته ، فهما سواء يدخلان فيما كان من فعل الإنسان ، وفيما ليس من فعله ، كما ذكرناه من المثالين . فأما الشكر فأخص من المدح . لأنه لا يكون إلا على النعمة خاصة، ولا يكون إلا صادراً من منعم، فلا يجوز أن يقال : شكر زيد عمراً لنعمة أنعمها عمرو على إنسان غير زيد .

إن قيل : الاستعمال خلاف ذلك ، لأنهم يقولون : حضرنا عند فلان فوجدناه يشكر الأمير على معروفه عند زيد . قيل : ذلك إنما يصح إذا كان إنعام الأمير على زيد أوجب سرور فلان ،فيكون شكر إنعام الأمير على زيد شكراً على السرور الداخل على قلبه بالإنعام على زيد ، وتكون لفظة « زيد » التى استعيرت ظاهراً لاستناد الشكر إلى مسماها كناية لا حقيقة ، ويكون ذلك الشكر شكراً باعتبار السرور المذكور ومدحا باعتبار آخر ، وهو المناداة على ذلك الجميل والثناء الواقع بجنسه .

ثم إن هؤلاء المتكلمين الذين حكينا قولهم يزعمون أن الحمد والمدح والشكر لا يكون إلا باللسان مع انطواء القلب على الثناء والتعظيم ، فإن استعمل شىء من ذلك فى الأفعال بالجوارح كان مجازاً . وبقى الحديث عن اشتراطهم مطابقة القلب للسان ، فإن الاستعمال لا يساعدهم ، لأن أهل الاصطلاح يقولون لمن مدح غيره وشكره رياء ومسمعة : إنه قد مدحه وشكره ، وإن كان منافقاً عندهم . ونظير هذا الموضع الإيمان ، فإن أكثر المتكلمين لا يطلقونه على مجرد النطق اللسانى ، بل يشترطون فيه الاعتقاد القلبى ، فإما أن يقصروا به عليه ، كما هو مذهب الأشعرية والإمامية ، أو تؤخذ معه أمور أخرى ، وهى فعل الواجب وتجنب القبيح ، كما هو مذهب المعتزلة ، ولا يخالف جمهور المتكلمين فى هذه المسألة إلا الكرامية ، فان المنافق عندهم يسمى مؤمناً ، ونظروا إلى مجرد الظاهر ، فجعلوا النطق اللسانى وحده إيماناً .

والمدحة : هيئة المدح، كالركبة فى هيئة الركوب ، والجلسة، فى هيئة الجلوس . والمعنى مطروق جد . ومنه فى الكتاب العزيز كثير، كقوله تعالى « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . وفى الأثر النبوى : لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

وقال الكتّاب من ذلك ما يطول ذكره . فمن جيد قول بعضهم : الحمد لله على نعمه التى منها إقدارنا على الاجتهاد فى حمدها ، وإن عجزنا عن إحصائها وعدها .

وقالت الخنساء بنت عمرو بن الشريد :

فما بلغت كف امرىء متناول
بها المجد إلا والذى نلت أطول
ولا صبر المثنون فى القول مدحة
وإن أطنبوا إلا وما فيك أفضل

ومن مستحسن ما وقفت عليه من تعظيم البارى عز وجل بلفظ « الحمد » قول بعض الفضلاء فى خطبة أرجوزة علمية :

الحمـد لله بقـدر الله
لا قدر وسع العبد ذى التناهى
والحمـد لله الـذى برهـانه
أن ليس شأن ليس فيه شأنه
والحمـد لله الذى من ينكره
فإنما ينـكر مـن يصوره

وأما قوله « الذى لا يدركه » فيريد أن همم النظار وأصحاب الفكر ، وإن علت وبعدت ، فإنها لا تدركه تعالى ولا تحيط به . وهذا حق ، لأن كل متصور فلا بد أن يكون محسوساً أو متخيلا أو موجوداً من فطرة النفس . والاستقراء يشهد بذلك . مثال المحسوس السواد والحموضة ، مثال المتخيل إنسان يطير أو بحر من دم . مثال الموجود من فطرة النفس تصور الألم واللذة . ولما كان البارى سبحانه خارجاً عن هذا أجمع لم يكن متصوراً .

فأما قوله « الذى ليس لصفته حد محدود » فإنه يعنى بصفته ها هنا كنهه وحقيقته . يقول : ليس لكنهه حد فيعرف بذلك الحمد ، قياساً على الأشياء المحدودة لأنه ليس بمركب ، وكل محدود مركب .

ثم قال « ولا نعت موجود » أى ولا يدرك بالرسم كما تدرك الأشياء برسومها ، وهو أن تعرف بلازم من لوازمها ، وصفة من صفاتها .

ثم قال : « ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود » فيه إشارة إلى الرد على من قال : إنا نعلم كنه البارى سبحانه لا فى هذه الدنيا بل فى الآخرة . فإن القائلين برؤيته فى الآخرة يقولون : إنما نعرف كنهه . فهو عليه السلام رد قولهم وقال : إنه لا وقت أبداً على الإطلاق تعرف فيه حقيقته وكنهه لا الآن ولا بعد الآن ، وهو الحق ، لأنا لو رأيناه فى الآخرة وعرفنا كنهه لتشخص تشخصاً يمنع من حمله على كثيرين ، ولا يتصور أن يتشخص هذا التشخص إلا ما يشار إلى جهته ولا جهة له سبحانه . وقد شرحت هذا الموضع فى كتابى المعروف بزيادات النقيضين . وبينت أن الرؤية المنزهة عن الكيفية التى يزعمها أصحاب الأشعرى لا بد فيها من إثبات الجهة ، وأنها لا تجرى مجرى العلم ، لأن العلم لا يشخص المعلوم ، والرؤية تشخص المرئى ، والتشخيص لا يمكن إلا مع كون المتشخص ذا جهة .

واعلم أن نفى الإحاطة مذكور فى الكتاب العزيز فى مواضع ، منها قوله تعالى (ولا يحيطون به علماً) ومنها قوله (ينقلب إليك البصر خاشعاً وهو حسير) .

وقال بعض الصحابة : العجز عن درك الإدراك إدراك . وقد غلا محمد بن هانىء المغربى فقال فى ممدوحه المعز أبى تميم معد بن المنصور العلوى :

أتبعته فكرى حتى إذا بلغت
غاياتها بين تصويب وتصعيد
رأيت موضع برهان يلوح وما
رأيت موضع تكييف وتحديد

وهذا مدح يليق بالخالق تعالى ولا يليق بالمخلوق .

فأما قوله « فطر الخلائق . . » ، إلى آخر الفصل ، فهو تقسيم مشتق من الكتاب العزيز بقوله « فطر الخلائق بقـدرته » من قوله تعالى (قال رب السموات والأرض وما بينهما) . وقوله « ونشر الرياح برحمته » من قوله (يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته) .

وقوله « ووتد بالصخور ميدان أرضه » من قوله (والجبال أوتاداً) . والميدان : التحرك والتموج .

وبعد هذا الذى أورده ابن أبى الحديد يفسح لرأى المتكلمين فوق إفساحه لرأى اللغويين ، ثم يكمل هذا وذاك بسوق أمثلة من الأدب نثراً وشعراً ، تراه يعرض

لما قاله الراوندى ليناقضه . كما أشار إلى ذلك فى مقدمته ، وها نحن نعرض ما قاله من ذلك لتكتمل الصورة : يقول :

فأما القطب الراوندى رحمه الله فإنه قال : إنه عليه السلام أخبر عن نفسه بأول هذا الفصل أنه يحمد الله . وذلك من ظاهر كلامه . ثم أمر غيره ، من فحوى كلامه أن يحمد الله . وأخبر عليه السلام أنه ثابت على ذلك مدة حياته ، وأنه يجب على المكلفين ثبوتهم عليه ما بقوا . ولو قال أحمد الله ، لم يعلم منه جميع ذلك . ثم قال : والحمد أعم من الشكر . والله أخص من الإله . قال : فأما قوله : الذى لا يبلغ مدحته القائلون . فانه أظهر العجز عن القيام بواجب مدائحه فكيف بمحامده . والمعنى أن الحمد كل الحمد ثابت للمعبود الذى حققت العبادة له فى الأزل واستحقها حين خلق الخلق . وأنعم بأصول النعم التى يستحق بها العبادة .

ولقائل أن يقول : إنه ليس فى فحوى كلامه أنه أمر لغيره أن يحمد الله . وليس يفهم من قوله بعض رعية الملك لغيره منهم : العظمة والجلال لهذا الملك ، أنه قد أمرهم بتعظيمه وإجلاله . ولا أيضاً فى الكلام ما يدل على أنه ثابت على ذلك مدة حياته ، وأنه يجب على المكلفين ثبوتهم عليه ما بقوا .

وبعد هذا العرض لقول الراوندى يأخذ ابن أبى الحديد فى الرد على الراوندى فيقول : ولا أعلم كيف قد وقع ذلك للراوندى ، فإنه زعم أن العقل يقتضى ذلك فحق ، ولكنه ليس مستفاداً من الكلام ، وهو أنه قال : إن ذلك موجود فى الكلام .

فأما قوله : لو كان قال : أحمد الله لم يعلم معه جميع ذلك ، فإنه لا فرق فى انتفاء دلالة « أحمد الله » على ذلك ، ودلاله « الحمد لله » ، وهما سواء فى أنهما لا يدلان على شىء من أحوال غير القائل ، فضلا عن دلالتهما على ثبوت ذلك ودوامه فى حق غير القائل.

وأما قوله : الله أخص من الإله ، فإن أراد فى أصل اللغة ، فلا فرق ، بل الله هو الإله ، وفخم بعد حذف الهمزة . هذا قول كافة البصريين . وإن أراد أن أهل الجاهلية كانوا يطلقون على الأصنام لفظة الآلهة ولا يسمونها الله فحق . وذلك عائد إلى عرفهم واصطلاحهم لا إلى أصل اللغة والاشتقاق،ألا ترى أن الدابة فى العرف لا تطلق على القملة وإن كانت فى أصل اللغة دابة .

فأما قوله : قد أظهر العجز عن القيام بواجب مدائحه فكيف بمحامده . فكلام يقتضى أن المدح غير الحمد . ونحن لا نعرف فرقاً بينهما . وأيضاً فإن الكلام لا يقتضى العجز عن القيام بالواجب لا من المادح ولا من المحامد ولا فيه تعرض لذكر الوجوب وإنما نفى أن يبلغ القائلون مدحته . لم يقل غير ذلك .

وأما قوله : الذى حقت العبادة له فى الأزل واستحقها حين خلق الخلق وأنعم بأصول النعم فكلام ظاهره متناقض . لأنه إذا كان إنما استحقها حين خلق الخلق . فكيف يقال : إنه استحقها فى الأزل . وهل يكون فى الأزل مخلوق ليستحق عليه العبادة .

واعلم أن المتكلمين لا يطلقون على البارى سبحانه أنه معبود فى الأزل أو مستحق للعبادة فى الأزل إلا بالقوة لا بالفعل ، لأنه ليس فى الأزل مكلف يعبده تعالى ولا أنعم على أحد فى الأزل بنعمة يستحق بها العبادة حتى إنهم قالوا فى الأثر الوارد : يا قديم الإحسان : إن معناه أن إحسانه متقادم العهد لا أنه قديم حقيقة كما جاء فى الكتاب العزيز (حتى عاد كالعرجون القديم) أى الذى قد توالت عليه الأزمنة المتطاولة .

* * *

وعلى هذا النحو يمضى ابن أبى الحديد يعرض شرح الراوندى جزءاً جزءاً ، وينقض هذا الشرح جزءاً جزءاً . وهذه المناقضة لا شك تثير حول الأصل نقطاً

يتولاها بالجلاء والوضوح، فهى على هذا جزء مكمل لشرح ابن أبى الحديد .

وهذا الاستطراد الذى تراه هنا حول آراء نقدية أو آراء للمتكلمين ترى مثله حول الوقائع والأيام والرجال . فحين يعرض ابن أبى الحديد لشرح كلمة من كلام على بن أبى طالب لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل . يتكلم عن يوم الجمل، كما يترجم لمحمد بن الحنفية ترجمة طويلة، كما يستطرد فيذكر شيئاً عن يزيد بن المهلب لأنه خطب أصحابه يوم واسط فاقتبس كلمة من كلام على لابنه محمد بن الحنفية .

* * *

والكتاب بهذا كله يعد موسوعة جامعة لشتى المعارف اللغوية والأدبية والكلامية والتاريخية والأيام وسير الرجال .

وبعد فإن محمد باقر يتناسى فى كتابه «روضات الجنات» جميع الشروح التى عرضت لشرح النهج ويقصر حديثه على اثنين منها ، يوازن بينهما وبين شرح ابن أبى الحديد ناقلا عن شيخ من شيوخه ، فيقول :

شرح ابن أبى الحديد على مذاق المتكلمين مع ضغث من التصوف وضغث من الحكمة .

وشرح الميثم — وهو يعنى كمال الدين ميثم بن على ابن ميثم البحرانى ٦٧٩هـ . وهو مطبوع — على مذاق الحكماء وأهل العرفان .

وشرح الميرزا علاء الدين الحسينى الأصفهانى الملقب بكلستانه — واسم شرحه : بهجة الحدائق ، وهو مختصر — على مذاق الإخباريين . ثم قال : ابن أبى أبى الحديد متكلم كتب على طرز الكلام وابن ميثم حكيم كتب على قانون الحكمة وكثيراً ما يسلط يد التأويل على الظواهر فيما مجال لا للتأويل فيه، وابن أبى الحديد مع تسننه قد يتوهم من شرحه تشيعه وابن الميثم بالعكس .

* * *

وشرح ابن أبى الحديد كما قلت لك طبعت طبعته الأولى طبع حجر فى فارس سنة ١٢٧١ هـ فى مجلدين وطبعت طبعته الثانية فى مصر بمطبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٢٩ هـ فى أربعة مجلدات يضم كل مجلد منها خمسة أجزاء من تجزئة المؤلف. وقد شرعت دار إحياء الكتب العربية فى طبعه طبعة ثالثة أخذت فيها منذ سنة ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٨ م على تجزئة جديدة صغيرة لا ندرى كم ستستوعب من أجزاء .

ولشرح ابن أبى الحديد هذا مختصر اختصره الفقيه الجامع المولى سلطان محمود ابن غلام الطبسى . ذكر ذلك النورى شيخ هبة الدين فى مستدركه على الرسائل (ص ٨٠٥) .